الجرائم المرتقبة في الذكرى الأولى للحرب وأهمية تنشيط يقظة الشعب في العراق!

كاظم حبيب

لم يكن للشعب العراقي يد في حرب الخليج الثالثة الحرب ولا بالحروب التي سبقتها ولكنه كان دوماً ضحيتها الأولى والأخيرة. وكانت ولا تزال الفرحة كبيرة لدى الشعب العراقي بخلاصه من أكثر الدكتاتوريين الذين عرفهم القرن العشرين في العراق ومنطقة الشرق الأوسط استبداداً ودموية وكرهاً للإنسان العراقي وتراثه الحضاري وقيمه الإنسانية وتقاليده الطيبة وروحه المرحة.

ولكن نهاية الحرب وسقوط النظام لم تضع نهاية لمآسي الشعب العراقي، كما أن تداعيات الحرب لاتزال تلتهم الكثير من البشر دون ذنب اقترفوه. وأصابع الاتهام تتوجه إزاء كل التفجيرات وقذائف الهاون والصواريخ والاغتيالات التي شهدها العراق خلال الأشهر المنصرمة حتى الوقت الحاضر صوب القوى العسكرية للنظام المخلوع المدربة لمثل هذه الأعمال وكذلك القوى القومية الشوفينية المتطرفة المتعاونة مع فلول صدام حسين، إضافة إلى قوى تنظيم القاعدة وأنصار الإسلام الكردية والعربية وغيرها من جماعات قوى الإسلام السياسي المتطرفة والإرهابية. وعلى المحققين أن لا يهملوا أي واحدة من هذه الجهات، إذ أنها اليوم تعمل بشكل مستقل مرة وبالتعاون والتنسيق في ما بينها مرة أخرى، ولكنها جميعاً تستهدف إنزال الضربات بالشعب العراقي وإشاعة عدم الاستقرار والخوف في نفوس الناس وإعاقة مسيرة البناء والتقدم وإنهاء الاحتلال وتسلم السلطة من جانب القوى الوطنية العراقية.

وكلما اقترب يوم إنهاء الاحتلال رسمياً وتسلم السلطة من قبل الشعب العراقي وقواه السياسية، جن جنون هذه القوى الظلامية والعدمية وازداد حقدها وتفاقمت رغبتها في القتل ورؤية أشلاء الضحايا الأبرياء الذين لا حول لهم ولا قوة متناثرة في ساحات مدن العراق وشوارعه وفي بيوت الناس المهدمة على رؤوسهم وفي دماء النساء والرجال والأطفال الزكية السائلة في كل مكان. إن هؤلاء الأوباش من أبناء "حملة التدين"، كما مارس قبل ذاك "حملة ضد تسمين عجول الفئة الحاكمة"، التي مارسها النظام في السنوات الأخيرة ومن القوى التي تريد العودة بالعراق قروناً كثيرة نحو الوراء وتخشى النور والحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان وحقوق القوميات وتخشى تطلع المرأة إلى المساواة والتقدم والمشاركة في بناء المجتمع. تلك القوى التي تفقد أعصابها يومياً كلما اقترب موعد ممارسة قانون إدارة الدولة المؤقت مع كل نواقصه، إذ أنها ستجد الشعب العراقي لها بالمرصاد يلتقطها واحدة فواحدة ويرميها خارج الحدود أو يضعها وراء القضبان بإرادة الشعب وفي سبيل تحقيق مصالحه. ليس غريباً أن تقوم عصابات الأوباش بمثل هذه العمليات الإجرامية الجبانة التي تقتل فيها الناس الأبرياء ابتداء من المجندين الأجانب ومروراً بقوى منظمات الأمم المتحدة والصليب الأحمر وأصحاب الأعمال العرب والأجانب العاملين في إعادة بناء المؤسسات والمنشآت العراقية التي دمرتها الحروب وانتهاءً بالشرطة العراقية وأبناء الشعب العراقي من كل القوميات والأديان والمذاهب والاتجاهات الفكرية والسياسية. والجماعات الأخيرة بشكل خاص هي المستهدفة من كل العمليات الإجرامية الجارية حالياً، بل الغريب في الأمر أن تعجز أجهزة الأمن والاستخبارات وسلطة وقوات الاحتلال لأقوى وأعظم دولة في العالم زائداً المملكة المتحدة وقوى حليفة أخرى لها تعمل في العراق في مطاردة قوى الشر والدم والتخريب، تعجز عن اكتشاف أوكار هذه العصابات الشريرة ووضع القيود في يديها ووضعها في السجون لتلقي عقابها الصارم عبر محاكمات شرعية وديمقراطية. الغريب أن تعمل قوى التخريب في كل مكان وبكل حرية وتتنقل من موقع إلى آخر في كل يوم دون أن يكون في مقدور القوى المطاردة لها تشخيص الفاعلين ووضع اليد على ما يصدرونه من تعليمات إلى أتباعهم أو وضع اليد على الأسلحة والعدات وخراطيش البنادق والعتاد والمتفجرات المستخدمة في عملياتهم الدموية. والغريب في أن المسؤولين لم يتوصلوا حتى الآن، بمن فيهم القوى العاملة في وزارة الداخلية العراقية والشرطة العراقية، إلى تحديد هوية الفاعلين للعمليات السابقة، في حين استطاعت السلطات الأسبانية في ظرف 24 ساعة تحديد هوية الفاعلين واعتقال بعضهم ومطاردة أتباعهم في الدول المغاربية وخارجها. إن للمشكلة المعقدة والمركبة الراهنة في العراق في هذا الصدد تكمن في أن قوات وسلطة الاحتلال وحدها غير قادرة حتى الآن على وضع حد لمثل هذه الأفعال الدنيئة.. كما لم تستطع القوى المتعاونة معها في وزارة الداخلية والمليشيات الحزبية تحقيق ذلك أيضاً. والسؤال المشروع الذي يفرض نفسه هو: ما العلة في ذلك؟ هل لأن الشعب في العراق لايزال غير متفاعل مع سلطة الاحتلال، رغم إسقاطها نظام الدم والرذيلة والاستبداد؟ وهل لأن قوى وزارة الداخلية ولا تزال بعيدة عن الحرص الكافي في تتبع تلك القوى وما تزال قليلة الخبرة بهذا الأمر؟ وهل أن مجلس الحكم الانتقالي لم يستطع حتى الآن تعبئة كل القوى السياسية العراقية والشعب العراقي ليضعها قوة واحدة في مواجهة قوى الظلام والكراهية والقتل للكشف عن أوكارها وتسليمهم إلى المسؤولين ليأخذوا عقابهم العادل؟ كل هذه الأسئلة العادلة تحتاج إلى جواب. والجواب هو نعم لكل تلك الأسئلة. فالشعب العراقي لا يزال مهمشاً في السياسة اليومية تقوم وتنوب عنه بعض القوى السياسية العراقية، وهو أمر لا يرتضيه الشعب بعد معاناة طويلة. والشعب لا يزال معوزاً ومشغولاً بإشباع بطنه وحصوله على الكهرباء والماء والهاتف والدواء والتخلص من القمامة المنتشرة في كل شوارع وأزقة العراق التي يمكن أن تتسبب في أوبئة مرعبة تذكرنا بكوارث القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر التي كانت تحصد أرواح العراقيين بالجملة، رغم بعض التحسن النسبي في كل ذلك. الشعب العراق غير مطمئن للمحتلين الذين كانوا يريدون تحريره وإذا بهم يفرضون احتلالهم عليه، وغير مطمئن لتلك القوى التي تريد فرض إرادتها عليه بغض النظر عن إرادة الشعب في الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان وتريد العودة بها إلى ماض سحيق وتتحرك على أسس طائفية مقيتة ومن مختلف الأطراف المذهبية. كان ولا يزال في مقدور الشعب العراقي أن يكشف عن هؤلاء بسهولة لو منح الفرصة، إذ أن كل جار في العراق يعرف جاره ويمكنه الإخبار عن جاره الغريب لكي يضع حداً للمآسي اليومية التي يواجهها الشعب يومياً. يستطيع أن يعلن للملأ عن وجود هذا الشخص أو ذاك أو هذه الجماعة أو تلك الذين يتحركون في الليالي السود ليمارسوا أغراضهم السود ضد الشعب. العراق بحاجة ماسة وفي كل ساعة إلى مشاركة الشعب ورقابة الشعب وحس الشعب المتضرر الأول بهذه الأفعال الشنيعة، فهي المساعدة الفعلية الحقيقية التي يمكنها وضع اليد على المجرمين من سكان العراق أم القادمين من الأقطار العربية والأقطار المجاورة. إنهم يعملون في الليل والنهار ولا يمكن أن يفلتوا من الشعب إذا أبدى الشعب استعداده الكامل لمطاردة هذه الخفافيش الموبوءة بالخبث والدناءة والكراهية والبعيدة كل البعد عن المشاعر القومية والإنسانية والإسلامية. الشعب بحاجة إلى الشعب، ولكن لا يمكن أن يتحرك الشعب ما لم يجد آذاناً صاغية لمطالبه واستعداداً لسماع رأيه ورغبة في تنفيذ أهدافه وابتعاداً عن احتقاره والإساءة إليه أثناء عمليات التحري والتفتيش عن الأعداء. من حق القوى التي تطارد هؤلاء الأوباش أن تتحرى كل البيوت والجوامع والمدارس وكل شيء في البلاد، ولكن من واجبها أيضاً، سواء أكانت قوات أمريكية أم بريطانية أم غيرها أم شرطة عراقية، أن تحترم كرامة الناس وتصونها ولا تسيء إليها عند ولوج بيوت الناس والجوامع وغيرها. وهو الذي لم يحصل حتى الآن بشهادة الكثير من المراسلين الصحفيين العالميين الذين لا يضمرون الكراهية للشعب وغير متهمين بالتعاطف مع القوى الظلامية. حتى الصحفيين من الولايات المتحدة والدول المشاركة في الاحتلال تؤكد صحة ما نذهب إليه من أفعال غير مقبولة تقوم بها تلك القوى التي تطارد فلول النظام أو غيرها. والحدود هي الأخرى غير محروسة تماماً، والرشوة تتسبب في مرور الكثير عبر الحدود.

لا ينفع تغيير تكتيكات قوى الاحتلال في أنها لن تتعقب قوى ورموز النظام السابق بل ستركز جهدها على قوى القاعدة وأنصار الإسلام، أي ضد قوى الإسلام السياسي المتطرفة. فقوى الإسلام السياسي تعمل منفردة وتعمل سوية مع الآخرين وتنسق بطرق مختلفة للوصول إلى العتاد. وهو ما ينبغي عدم نسيانه. ليس صحيحاً القول بعدم وجود انتحاريين في صفوف البعثيين من أتباع وفلول النظام المخلوع وصدام حسين. ليس صحيحاً إبعاد هؤلاء من المطاردة، إذ أنهم يمارسون كل الأفعال التي تمارسها قوى الإسلام السياسي المتطرفة. فحملة العودة إلى الدين الإسلامي والتدين التي نظمها صدام حسين في السنوات الأخيرة، لا إيماناً بل تقرباً من القوى الإسلامية المؤمنة في العالم، قد وضعت الكثير من الشبيبة البعثية والعسكريين المتدينين على هذا الطريق الذي تمارسه قوى القاعدة أيضاً. لذلك ينبغي الحذر من إهمال جماعة دون أخرى في عملية المطاردة، وإلا فسنعض على النواجذ ونندم حين لا ينفع الندم. إن القيام بتوزيع العمل على أجهزة الأمن الداخلي في ضوء تصنيف القوى المعادية للشعب العراقي والتي تقوم بعمليات الإجرام الراهنة وضمان التعاون بين تلك الأجهزة سيساهم في تسريع عملية الملاحقة والكشف عن مخابئ هؤلاء القتلة والمرشحين للقتل. ليس كل بعثي مستهدف من حملة المطاردة، ولا يمكن أن يكون الأمر كذلك، بل كل بعثي انخرط في النشاط الإجرامي الراهن. ولهذا لا بد من التمييز ولكن لا يجوز الإهمال في ذلك. فالأمر يتعلق بحياة الناس، وكل فرد يقتل في مثل هذه العمليات هو خسارة فادحة للشعب العراقي كله.

إن عمليات أربيل والسليمانية والإسكندرية وكربلاء والكاظمية وكركوك وبغداد وفندق جبل لبنان الأخيرة وغيرها كلها تسجل على حساب كل القوى الظلامية والعدمية دون استثناء وعلينا التفتيش في أوراق كل هؤلاء المجرمين. فالتحري يفترض أن يتوجه إلى كل الجهات ولا يقتصر على جهة واحدة. ولكن لا يمكن تحقيق الكثير دون تعاون الشعب الكامل ضد هذه القوى وعلينا أن نجهد لتعبئة الشعب لهذا الغرض أيضاً شريطة أن نستجيب وبأسرع وقت ممكن لحاجاته الأساسية وأن لا نترفع عليه وننظر إليه من عل أو نحتقر مساهماته. وبدلاً من التظاهر اليومي الذي تنظمه قوى الإسلام السياسي المعتدلة وتزيد من إشكالية الفوضى في الشوارع وتترك الآخرين يحيكون عملياتهم لينفذوها ليل نهار، عليها أن تمارس مهماتها في هذا المجال أيضاً. على جميع السيدات والسادة أعضاء مجلس الحكم الانتقالي أن يكفوا عن الإحساس بالغبن بسبب فقرة لم تعجبهم. فقانون إدارة الدولة المؤقت ليس عهداً ثابتاً ومستقراً ومن حق الشعب تغييره بكل الاتجاهات وفق موازين القوى. ولكن لا يجوز الخروج الراهن على إرادة الأكثرية وإشغال الناس بالتفاصيل بدلاً من المشاركة في وضع حد لسيل الدماء وانتشار الأشلاء في شوارع العراق. دم العراقيات والعراقيين في رقاب الجميع ولا يجوز عدم تحمل المسؤولية كاملة إزاء ما يجري اليوم في العراق المستباح من قوى القتل والظلام والخراب.

الغلاة الجدد وأيديولوجية الإرهاب "المقدس"

ميثم الجنابي

قد تكون كلمة المقدس من بين أكثر الكلمات تعقيداً بالنسبة للتفسير العقلاني والتأويل الوجداني وذلك بسبب صعوبة حصر مضمونها بأمور هي نفسها عرضة للزوال. في حين إن كل ما هو حولنا من مظاهر الوجود هي دلائل على أن كل ما في الكون عرضة للتغير والتبدل. ومن ثم فان كل القيم التي تبدو في مظهرها شديدة الثبات تنحل كما لو أنها من مخلفات الماضي وبقاياه الميتة. وهي حالة تجعل من الضروري أيضا إعادة النظر النقدية بفكرة المقدس وتأويلها الوجداني بالشكل الذي يجعلها حية وإنسانية من حيث دوافعها وغاياتها. لاسيما ان الكثير من الأعمال الإجرامية التي جرى ويجري اقترافها في العراق حاليا عادة ما تؤطر وتقدم على انها جزء من تاريخ "مقدس".

فقد مارست الدكتاتورية الصدامية والتوتاليتارية البعثية مختلف أصناف الإرهاب الشامل تحت شعارات لاتتمتع بأية رؤية واقعية وتاريخية، ومع ذلك حاولت أن تعطي لها أبعادا ما فوق تاريخية من خلال ربطها "برسالة خالدة" لامة لم تتكامل بعد! أما النتيجة فهي الإفساد الشامل لفكرة القومية العربية وتشويه محتواها وتخريبها الفعلي. وهي رؤية تشاطرها الكثير من الحركات الدينية والدنيوية، اليسارية واليمينية، القومية والاشتراكية في العراق. مما يعطي لنا إمكانية القول بان ضعف الرؤية الواقعية والتاريخية يكمن في كثير من جوانبه وراء البحث عن صيغة أسطورية تلتهم كلمات "المقدس" من اجل تبرير الضعف البنيوي لها في ميدان العمل السياسي وبالأخص فيما يتعلق منه ببناء الدولة الشرعية والنظام الديمقراطي والمجتمع المدني.

وهو ضعف لازم في تاريخ العراق المعاصر كيفية تشكل الدولة الحديثة فيه، وابتعادها المتزايد عن مضمونها السياسي، وتفريغ مضمونها الاجتماعي. مما جعل منها في نهاية المطاف كيانا مغتربا اغترابا تاما ومناقضا لوظيفتها السياسية والاجتماعية، بوصفها أداة لإدارة شئون الحياة. وضمن هذا السياق يمكن فهم "الجرأة" التي تميز بها الفعل الإجرامي المتعمد في قتل المئات من الشيعة في أحد أكثر شعائرهم الوجدانية والروحية والتاريخية سموا وقدسية. فهو فعل يفترض الإدراك الواعي والمحدد ضد من يجري تنفيذه، وبالتالي، يتضمن قدرا من "الوجدانية" و"الروحية" و"التاريخية" في تنفيذه. بمعنى انه يحتوي على تأسيس فكري وأيديولوجي وسياسي لقيمته الفعلية في الصراع الدائر في العراق عموما وفي الظروف الخاصة الملازمة لانتهاء الفترة القانونية للاحتلال وإدارة شئون الدولة للمرحلة الانتقالية. وهي أفعال تشير من حيث مقدماتها ومجرياتها ومغزاها إلى انها جزء من العراك السياسي والاجتماعي والثقافي في العراق. وفي بصماتها تشير إلى قوى تتصف بمستوى عال من التعصب العقائدي مميز للتيارات الدينية الإسلامية السنية المعاصرة.

فمن الناحية الظاهرية والشكلية لم يكن تخريب وتدمير "الأماكن المقدسة" فعلا غريبا في تاريخ الدول والأمم والأديان، بما في ذلك في تاريخ الإسلام. فقد جرى هدم وتخريب الكعبة مرارا بدءاً من الأموية وانتهاء بالوهابية. وبغض النظر عن اختلاف البواعث والغايات، الا أن النتيجة المعنوية كانت واحدة على الدوام، الا وهي هدر القيمة الوجدانية لفكرة "المقدس". ومع أن الإسلام لا يقر بقدسية المكان الجغرافي، الا انه يتضمنه سواء في موقفه من "وادي الطوى" و"بيت الله الحرام". لكن مضمون الموقف الإسلامي يقوم في رفعه من شأن الأبعاد المجردة للحق، كما في الآية القائلة "أينما تولوا وجوهكم فثم وجه الله". وهي فكرة تجرد المقدس عن الحصر في مكان معين، بمعنى سموه عن الحصر والحشو والتجسيم. وليس مصادفة أن يروى عن الخليفة عمر بن الخطاب هو يقبل الحجر الأسود، قوله بأنه يعلم بأنه مجرد حجر، ولولا انه لم ير النبي محمد يقبله لما قبله. وهو موقف يشير إلى تقاليد الفعل الظاهري وقيمة التقاليد المعبرة عن معنى الانتماء الوجداني لا غير. وهي رؤية واقعية وعقلانية تتصف بعمق ثقافي هائل بالنسبة لتراكم القيم والمواقف التاريخية الاجتماعية. وليس الا الانحطاط التاريخي لعالم الإسلام وجمود ذهنيته الثقافية هو الذي جعل من الحجر الأسود مجرد حجر لا غير، وبالتالي تحويل شعائر الاقتراب منه إلى فعل مقدس، مع انه لا قدسية فيه كما هو. وليس مصادفة أن يدور بعض المتصوفة حول حجر يضعه في بيته ويتبرع بأموال سفره إلى الحج للأيتام والفقراء. والا فكيف يمكن فهم صرف الأموال الكبيرة من اجل تحسن شروط الحج، بينما تتكرر النتيجة سنويا، وهي موت العشرات والمئات وهم يرشقون حجرا بحجر! بينما لم يكن المعنى والمضمون الوجداني للرمي سوى رمي حجارة النفس أو وثنيتها من اجل تنقيتها باسم الحق. ذلك يعني أن "قتل الشيعة" و"هدم أماكنهم المقدسة" يحتوي على قدر من التوليف المفتعل لتقاليد اتسمت تاريخيا بالتعصب والجمود ونفسية الانتقام المتربية بأحضان الاستبداد والانعزال الثقافي، أي كل ما يمكن دعوته بالوثنية الهمجية. وهي أيديولوجية تشكل في الواقع مضمون الفعل السياسي لهؤلاء الغلاة الجدد! إذ لم يكن ما جرى في العراق من مظاهر الإرهاب المنفلت كما تجسد في مجازر كربلاء والكاظمية والنجف في أيام عاشوراء، سوى الصيغة "المقدسة" لاستمرار تقاليد الإرهاب السياسي الشامل للتوتاليتارية البعثية والدكتاتورية الصدامية. بعبارة أخرى، إن ما جرى ويجري من انفلات إرهابي هو التعبير النموذجي عما يمكن دعوته بالاستظهار السياسي العابر للأمراض المزمنة الموروثة من بقايا التوتاليتارية والدكتاتورية وتقاليد الاستبداد. إذ نعثر فيها ليس فقط على محاولة إثارة الفتنة الطائفية، بل استمرارا لها. والقضية ليست فقط في انها استهدفت شعائر الشيعة والشيعة أنفسهم، بل ومراكز تاريخهم الوجداني والروحي. وهو الأمر الذي يشير إلى بروز وتبلور ظاهرة جديدة في تاريخ العراق السياسي المعاصر لا ينبغي البحث عن جذورها في "القوى الأجنبية" أيا كانت مثل "المحتل" و"القاعدة" وغيرها. فهي قوى "تشترك" من حيث وجودها السياسي وصراعها "العالمي" في العراق، الا انها لا تحدد مضمون ومسار الصراع فيه. إن جوهر الصراع القائم في العراق اليوم يقوم بين ممثلي تقاليد الاستبداد والدكتاتورية والتوتاليتارية من وقوى الديمقراطية والدولة الشرعية والمجتمع المدني من جهة أخرى. وإذا كانت القوى البعثية - الصدامية التي كانت تمثل تاريخ الاستبداد والدكتاتورية والتوتاليتارية قد تعرضت إلى هزيمة سياسية ساحقة، فان رصيدها الأيديولوجي والاجتماعي مازال يتمتع بقوة نسبية في العراق. وهو رصيد له موارده القوية على الصعيد المحلي والعربي والإسلامي المتمثل بالقوى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية التي ارتبطت به سياسيا وتاريخيا طوال وجوده في سدة الحكم. وهي القوى التي أطلق عليها تسمية "الغلاة الجدد" في العراق. فهي القوى التي تحاول استلهام فكرة المقدس المزيفة من اجل تحويلها إلى غطاء سياسي لاستعادة بنية الاستبداد والدكتاتورية والتوتاليتارية المنحلة.

فقد كان العراق البعثي الصدامي "العتبة المقدسة" للغلاة الجدد، الذين اخذوا يتحسسون سقوطها التاريخي، باعتبارها خيانة من جانب "الشيعة" لإحدى "مقدساتهم". وهي ظاهرة تعيد إلى الذاكرة التاريخية ما سبق للأتراك العثمانيين من تحسسهم لمواقف العرب منهم في الحرب العالمية الأولى، وتصويرهم إياها على انها "خيانة" للإسلام و"الدولة العلية". فقد كان المسار العام "للدولة العلية" والدكتاتورية الصدامية واحدا من حيث كونه نموذجا متشابها في تقاليد الاستبداد وغياب العقلانية.

طبعا كان من الأفضل لو جرى تطوير الإصلاحات الداخلية ضمن السلطنة العثمانية بالشكل الذي يحفظ للمنطقة عموما استقلالها الفعلي ودورها السياسي على النطاق العالمي ووحدتها الذاتية. وكان بإمكانه أن يلغي أية إمكانية لظهور "إسرائيل" والعواقب السياسية والقومية الهائلة المترتبة على ذلك. والشيء نفسه يمكن قوله عن حالة العراق ما قبل الغزو الأمريكي له. الا أن التاريخ لا يعرف كلمة "لو". وهو يبرهن على حقيقة أقرب ما تكون إلى البديهة وهي أن الاستبداد مصيره الزوال. وفي زواله يثير كميات هائلة من المشاكل والمعضلات التي تقع على الأجيال اللاحقة مهمة حلها. وليس ما يجري في العراق والعالم العربي عموما

الاستبداد، التي جرى إعادة إنتاجها من خلال ملابسات تاريخية هائلة، مرتبطة بطبيعة الاحتلال الكولونيالي للعالم العربي وتجزئته وبعثرة التراكم الفكري والاجتماعي والمؤسساتي فيه من خلال الانقلابات العسكرية وصعود الهامشية إلى السلطة وسيادة النزعة الراديكالية. وبمجموعه أدى ذلك إلى صنع توتاليتاريات دنيوية ودينية، ليس الغلاة الجدد سوى الصيغة الأكثر همجية لها. بمعنى انها الحالة التي تشير إلى تزاوج وتوليف التقاليد التوتاليتارية الدينية والدنيوية. وهي نزعة لم تكتمل بعد ولا تشبه في شئ تقاليد الحركات الإسلامية (السنية) بدءا بالوهابية وانتهاء بحركة طالبان والقاعدة. الا انها عرضة للزوال السريع مقارنة بأمثالها لأنها تجمع بين قوى متناقضة لا يجمعها سوى العداء العلني والمستتر لفكرة الدولة الشرعية والنظام الديمقراطي والمجتمع المدني، أي ضد التيار الكلاسيكي للتقدم والحرية.

وهو الأمر الذي يضع بدوره مهمة النقد العقلاني العميق لتقاليد المدارس الإسلامية السياسية السنية منها بشكل عام وفي العراق بشكل خاص. والقضية هنا ليست فقط في أن هذه المدارس اتسمت في التاريخ الحديث بنزوع حاد نحو التطرف والغلو، بل ولوقوفها السياسي الطويل إلى جانب القوى التقليدية في العالم العربي وأنظمتها الاستبدادية. وهي تقاليد ميزت تاريخيا الفكرة "السنية" منذ انحطاط المعالم الكبرى للحضارة الإسلامية، وبالأخص بعد سقوط بغداد في منتصف القرن الثالث عشر. ولعل مهزلة المفارقة التاريخية الآن تقوم في محاولة هؤلاء الغلاة الجدد استعادة تقاليد المدارس الحنبلية الضيقة والوهابية بشكل خاص بعد ممازجتها بأفكار ونفسية الدكتاتورية الصدامية. طبعا لم يخل تاريخ التشيع من كثرة الغلاة، لكنه غلو عقائدي وفكري في جوهره، أي انه غلو وجداني. من هنا سمو وتسامح الفكرة الشيعية وعنفوانها البطولي في مواجهة الاستبداد والدفاع عن الحق. بينما لا تجعل الحنبليات ومختلف "الأصوليات" الضيقة من الإسلام سوى تصوراتها الفجة وتقليديتها المتحجرة عما تراه "مقدسا". وليس هذا المقدس في الواقع سوى الصيغة الأيديولوجية للتعصب والانعزال الثقافي شبه التام، والاغتراب عن قيم الحضارة الإنسانية وتاريخها الموحد. وهو غلو يقف من حيث الجوهر على هامش الحركة العامة للظاهرة الإسلامية الكبرى بوصفها مركزية إسلامية عالمية.

وهو الأمر الذي يجعل من الضروري التصدي للغلاة الجدد ووثنية إرهابهم "المقدس" من جانب التيارات الإسلامية السياسية من خلال النقد العقلاني للغلو الإسلامي السلفي.

وهي مهمة يمكن تحقيقها من خلال الإسراع ببناء أسس ومرتكزات الدولة الشرعية والنظام الديمقراطي والمجتمع المدني. فهو الثالوث القادر على حمل الوحدة الوطنية العراقية وعمرانه الشامل. والعمل في نفس الوقت على بناء أسس ما ادعوه بالإسلام الثقافي، أي الإسلام الذي تتحدد ماهيته بقيمة المرجعيات الثقافية العقلانية والإنسانية المتراكمة في تاريخه الكلي، وليس بمفاهيم وتصورات وأحكام فرقه المتنوعة والمختلفة.

فهي العملية القادرة على تقديم بديل إيجابي وفعال يولف بين التيار الديني والدنيوي في العراق في مواجهة سبيكة التوتاليتارية الدينية والدنيوية للغلاة الجدد ووثنية إرهابهم "المقدس".

ولعل الصيغة الأكثر استجابة لتوليف الرؤية العقلانية والوجدانية من جانب الحركة الدينية (الإسلامية) والدنيوية (العلمانية) في العراق الآن، ورفعها إلى مصاف الحدس الثقافي، هي الفكرة القائلة بان المقدس هو التجرد عن الابتذال. وليس هناك مقدس من هذا القبيل في ظروف العراق الحالية والعقود القليلة القادمة اكثر من وحدة الدولة الشرعية والنظام الديمقراطي الاجتماعي والمجتمع المدني. فهو الثالوث الوحيد القادر على صنع الحرية وتأسيسها قانونيا من اجل بلوغ ما كانت تدعوه المتصوفة بالتحرر من رق الأغيار، أي التحرر من عبودية الغير، أي من عبودية كل ما لا يمثل الحق في العراق.

الـ "فرانكنشتاين" الذي أسكناه كان قد اختفى في بيت عنكبوت

مايكل مور

ترجمة سليم عبد الأمير حمدان

مايكل مور: ينبغي أن نفرح لأن صداما وقع في يد الولايات المتحدة. لاشك في أنه كان قد حز لنا. مع أن شكله كان قبيحا، ولكنه أفاد - عوضا عن ذلك - من فحص مجاني على يد طبيب أسنان. وذلك أمر لا يحظى به كثير من الأمريكان. لقد سلحناه وساعدناه كي يعرّض جيش إيران للهجمات الكيمياوية. ولكنه استدار فجأة، وهجم على إمارة الكويت فقام - بذلك - بأسوأ أفعاله. لقد هدد حتى واحدا من خيرة أصدقائنا، يعني ملك العربية السعودية - ومنابعه النفطية الكبيرة. لقد كان آل بوش والعائلة المالكة السعودية، وماز الا، طرفين تجاريين متقاربين، وكان صدام - باقترابه أكثر من المسموح من ثروة هؤلاء، سنة 1990 - قد ارتكب خطأ ملوكيا. منذ تلك النقطة فما بعدها، انقلب ورق صدام. طبيعي أنه قبل هذا لم يكن الأمر كذلك، فصدام كان صديقنا وحليفنا، كنا ندعم نظامه، كما أن تلك لم تكن المرة الأولى التي نحمي فيها مجرما. لقد كنا نعشق أن نلعب دور الدكتور. فرنكنشتاين. لقد خلقنا ما لا يحصى من الـ "بعابع" "شاه إيران، سوموزا النيكاراغوي، وبينوشيه التشيلي. ثم، عندما بدأ هؤلاء يقتلون ويلتذون مما يفعلون، تظاهرنا بعدم المعرفة أو تظاهرنا بأننا صدمنا. كنا نريد صداما لأنه كان يريد أن يحارب نظام إيران. طمأناه بأنه سينال مليارات الدولارات لشراء الأسلحة. أسلحة الدمار الشامل. نعم، كان يمتلك هذه الأسلحة. نحن أنفسنا أعطيناه إياها. نحن أنفسنا شجعنا الشركات الأمريكية في عقد الثمانينيات على التعامل معه، فتمكن، عن هذا الطريق، من الحصول على المواد الكيميائية والبيولوجية، ويستفيد منها في أسلحته الكيميائية والبيولوجية. وفي أدناه قائمة بالمواد التي أرسلناها له (على وفق تقرير مجلس الشيوخ الأمريكي لسنة 1994): 1- بلسيلوس انثراسيس Bacillus - Anthracis عامل الجمرة الخبيثة. 2- كلوستريديوم بوتولينوم Clostridium - Botulinum سم قوي يسبب تسمما غذائيا حادا. 3- هيستوبلازم كابسولاتام - Histoplasm Capsuletam تسبب أمراضا في الرئة، المخ، النخاع، والقلب. 4 – بروسيلا ميليتنسيس Brucella - Melitensis بكتريا يمكن أن تخرب أجهزة البدن المهمة كليا. 5 – كلوستريديوم رفرينجنز - Clostridium Perfringens بكتريا قوية السمّية تؤدي إلى أمراض في الجهاز الهضمي. 6- كلوستريديوم تيتاني Clostridium - Tetani مادة سامة قوية. وفي أدناه أيضا قائمة بأسماء بعض الشركات الأمريكية التي ساعدت، بمعاملاتها التجارية، في حفظ صدام: أي تي أند تي، بكتل، كاتر بلار، داو كيميكالز، دو ونت، كوداك، هيلوت امكارد، أي بي أم. لقد كنا على قدر من الراحة مع صدام العجوز العزيز، بحيث صممنا أن نعد له صور أقمار صناعية. صور أتعين أين يستقر الجيش الإيراني. كنا واثقين من أنه ما أن نرسل له تلك الصور التجسسية حتى يقصفهم كيميائيا. لزمنا الصمت. لأنه كان صديقنا والإيرانيين "أعداؤنا". بعد سنة من هجومه الكيميائي، أقمنا معه علاقات سياسية كاملة. وبعد ذلك هجم على شعبه، يعني الكرد، أيضا، بالمواد الكيميائية. لا تتصوروا أنه ربما يكون عمله ذاك أدى إلى إجبارنا على الابتعاد منه. طبيعي أن الكونغرس حاول أن يفرض مقاطعة اقتصادية لصدام، ولكن بيت ريان الأبيض عارض تلك الفكرة على الفور. لم يكن أولئك ليسمحوا بإبعاد رفيق كفاحهم الجيد صدام عن المسرح. لقد كنا نكنّ عشقا ومحبة عجيبين لهذا الفرنكنشتاين الذي خلقناه، إلى حد ما، نحن أنفسنا. ولكن صداما، شأنه شأن فرنكنشتاين الأسطوري بالضبط، أفلت - عند العمل - من أيدينا. لقد تمرد - عند العمل - على أوامر سادته. كان ينبغي إمساك صدام. والآن، إذ توقف عن الوحشية، فلربما كان لديه ما يقوله بشأن خالقه. ربما أمكننا أن نتعلم أشياء ذات أهمية. ربما تمنى دونالد رامسفيلد أن يبتسم مرة أخرى لصدام، ويصافحه. كما كان فعل سنة 1983 بالضبط عندما سافر لرؤية صدام (يمكنكم مراجعة صحف تلك الأيام لتروا تصاوير تلك الزيارة). لو أن رامسفيلد وبوش وزملاءه الآخرين لم يتحمسوا إلى ذلك الحد لبعبعهم المحبوب، فلربما ما كنا لنجد أنفسنا قط في الظروف التي نحن فيها. على فكرة، أيعرف أحد أين هو فرنكنشتايننا الآخر، الشخص الذي قتل ثلاثة آلاف شخص في 11 أيلول؟ ربما كان يختفي في جحر جرذ. كل هؤلاء البعابع الصغار والوقت القصير حتى الانتخابات! أيها المرشحون الديمقراطيون الأعزاء! كونوا صلبين، ونرجوكم أن تكفوا أزيزكم. لقد أرسلنا أولاد الـ ... هؤلاء إلى الحرب على أساس كذبة، ولن يتوقف القتل.

إن بلاد العرب تكرهنا بشدة، وسندفع غرامة الحرب، على مدى السنوات القادمة، من جيوبنا. لم يقع اليوم - أو الأصح أن نقول: خلال التسعة الأشهر المنصرمة - ما يجعلنا نحس أننا أكثر أمانا ولو بقليل مما كنا عليه في 11 /أيلول. لم يكن صداما قط تهديداً لأمننا القومي. إن ولعنا بتنفيذ سيناريو فرنكنشتايني هو ما أوصلنا إلى هذا.